مقومات الشخصية الإنسانية من منظور العقيدة الاسلامية

آيات حسين علي

الأستاذ الدكتور محمد محمود عبود العيساوي

الجامعة العراقية - كلية العلوم الإسلامية

المقدمة

بسم الله والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول صلى الله عليه وسلم الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد . تمثل العقيدة الإسلامية محور الإصلاح الحقيقي كونها أوجدت العديد من الأسس القويمة التي أصلحت وقومت الأفراد والمجتمعات ولاسيما عقيدة توحيد الربوبية التي تمثل المرتكز الأساسي لإصلاح الفكر والنفس والسلوك والمجتمع من خلال وضع أطر تنظيمية لجعل الفرد أكثر فاعلية وأكثر إنتاجية في المجتمع .ففي ظل التطور المتسارع الذي تشهده المجتمعات في محتلف الجوانب أدى الى إضعاف دور الفرد وأصبح آلة منقادة تحركها الأفكار الهدامة والمظللة على الرغم من أن عقيدة التوحيد كانت لها أطر واضحة تؤكد على أهمية الفرد وبأن الله (ﷻ) جعله خليفة في الأرض لقوله (ﷻ) : ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ))(١) ، وتم منحه القدرات والإمكانيات التي تمكنه من السعي المراد منه لإصلاح المجتمع وإعمار الأرض ألا أنه إنقاد الى الأفكار والقيم المنحرفة التي أسهمت كثيراً في دخول الغزو الفكري والحركات الهدامة التي أدت الى تخريب القيم والسلوك ، فما نراه اليوم من فساد وجرائم إلا جاء نتيجة لتغييب دور التوحيد عن النفس وعن المجتمع فظهر التطرف والقتل والتشكيك بالثوابت الدينية الصحيحة وأصبحت مجتمعاتنا مقلدة لأفكار الغرب وما جاءت به من قيم مغايرة لتراثنا الإسلامي العظيم .

تمثل شخصية الإنسان أحد أهم المكونات الأساسية لبناء العقيدة الصحيحة لذلك نجد أن الإسلام حرص حرصاً كبيراً على إبراز شخصية المسلم المتوازنة ، من خلال التأكيد على الأخذ بمقوماتها الإسلامية الأصيلة ، وركز على ذكر معالم هذه الشخصية وملامحها وركائزها وآثارها في كيان الفرد نفسه ومجتمعه ، فالشخصية الإنسانية وفق المنظور الإسلامي قائمة على الإيمان ، والتحلي بآداب الشريعة الكاملة من الصدق والأمانة والعفة والحياء والخلق الحسن والإتزان الفكري والسلوكي الى غير ذلك من أخلاق الإسلام . فأصل مقومات الشخصية الإسلامية قائم على الإيمان بالله ورسوله ، والتصديق والانقياد لأحكام الشريعة وأصولها وآدابها ومن هذا المنطلق تم اختيار عنوان لبحثنا المتواضع .وأسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعنا بما علمنا ، فما أنا إلا بشر والبشر قد يخطئون ويصيبون فإن أصبت فمن توفيق الله وحفظه وإن كان فيه خطأ فمن نفسي ... والحمد لله أولاً وآخرا...

تمهيد

تمثل شخصية الإنسان أحد أهم المكونات الأساسية لبناء العقيدة الصحيحة لذلك نجد أن الإسلام حرص حرصاً كبيراً على إبراز شخصية المسلم المتوازنة ، من خلال التأكيد على الأخذ بمقوماتها الإسلامية الأصيلة ، وركز على ذكر معالم هذه الشخصية وملامحها وركائزها وآثارها في كيان الفرد نفسه ومجتمعه ، فالشخصية الإنسانية وفق المنظور الإسلامي قائمة على الإيمان ، والتحلي بآداب الشريعة الكاملة من الصدق والأمانة والعفة والحياء والخلق الحسن والإتزان الفكري والسلوكي الى غير ذلك من أخلاق الإسلام . فأصل مقومات الشخصية الإسلامية قائم على الإيمان بالله ورسوله ، والتصديق والانقياد لأحكام الشريعة وأصولها وآدابها لذلك وقبل البدء بالحديث عن مقومات الشخصية الإنسانية لابد من التعرف على مفهوم الشخصية الإنسانية لغة وإصطلاحاً : ففي اللغة يراد بالشخص : جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر والجمع أشخاص وشخوص، شخصاص، والشخص : سواء الإنسان وغيره، نراه من بعيد وتقول ثلاثة أشخاص وكل شئ رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه »(2) ، ومنها أشتقت الشخصية ويراد بها: « أنها صفات تميز الشخص عن غيره ويقال: فلان ذو شخصية قوية، ذو صفات متميزة وإرادة وكيان مستقل (3) ، أما إصطلاحاً فلفظة الشخصية بالأصل تشتق من كلمة (Personality) في صيغتها من الكلمة اليونانية (برسونا) (persona) وتعني القناع أو الوجه المستعار الذي كان يضعه الممثلون على وجوههم من أجل التنكر وعدم معرفتهم من قبل الآخرين ولكي يمثل دوره المطلوب في المسرحيات فيما بعد. (4) أما علماء علم النفس فعرفوها : " مجموع الاستعدادات أو الميول، والدوافع، والقوى الفطرية الموروثة بالإضافة إلى الصفات والاستعدادات والميول المكتسبة ". (5)أما من منظور علماء علم الإجتماع فيراد بها : " التكامل النفسي والاجتماعي للسلوك عن الكائن الحي " 6() وكذلك يرون: " بأنها كل ما يتيح لنا التنبؤ بما يفعله الفرد من موقف معين، فالشخصية سلوك يصدر عن الفرد سواء كان ظاهر أم خفي". (7)أما في الإسلام قد وضع القرآن الكريم صورة شاملة وصادقة لطبيعة شخصية الإنسان ودوره ووظيفته ومصيره وبناءه النفسي؛ فالقرآن الكريم ينظر إلى الشخصية الإنسانية كوحدة متكاملة، يتناولها من جميع جوانبها المتعددة، الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، والفكرية، والجسدية، كما أشار إلى ركن لم يتم تناوله عند علماء النفس، ألا وهو الجانب الروحي (8) ، ومما سبق يمكن القول : أن مفهوم الشخصية الإسلامية يتميز بالاعتدال والتوازن، فلا يطغى جانب

على آخر، حيث يعتبر الإسلام أن بناء الشخصية السوية يتم وفق الاتزان والاعتدال دون إفراط في جانب على حساب جانب آخر ولهذا جمع المنهج الإسلامي بين الدنيا والآخرة في نظام الدين، وبين الروح والجسد في نظام الإنسان، وبين العبادة والعمل في نظام الحياة ، لذلك نجد أن الإسلام ينطلق في مجال تنظيم الشخصية الإنسانية من خلال ثلاثة جوانب والمتمثلة بالآتي :

المطلب الأول : **المقومات العقلية** :

يمثل العقل الإنساني أهم مرتكز تقوم عليه عقيدة التوحيد لدى المسلم فالإسلام ينطلق في فهمه للإنسان من النظرة الأخلاقية الواقعية، فلم ينظر إلى السلوك الإنساني نظرة خيالية، كما فعلت مدرسة التحليل النفسي التي تنطلق في تفسيرها للسلوك من مفاهيم وفرضيات غير واقعية، كذلك لم ينظر الإسلام إلى السلوك نظرة مادية، كما فعلت المدرسة السلوكية التي اعتبرت الشخصية استجابات الفرد للمثيرات المحيطة به فالسمة الأساسية للشخصية الإسلامية هي الصفة الأخلاقية، فالإنسان المسلم لا يستمد غايته السلوكية التي يسعى إلى تحقيقها في المجتمع من ظروف مادية مستقلة عن الإنسان([9]) ، وتسعى الشريعة الإسلامية من خلال عقيدة التوحيد الى تحقيق جملة من السمات، التي تتجلى في الشخصية، والتي تجمع مع سلامة العقل وقوة الجسم وصدق العقيدة ومكارم الأخلاق، وأن تعيش لأمتها منتجة ومجاهدة، كما تعيش مفكرة ومبدعة ومربية فاعلة بما لديها من ثقافة جامعة بين الأصالة والمعاصرة، ولتحقيق هذا الهدف لابد من توفر سمات الشخصية الإسلامية التي تشمل الأساس العقدي الذي يقدم للإنسان النظرة الكلية الشاملة للكون والإنسان والحياة، وعلاقة كل منهما بالله (ﷻ) ، وعلاقة الكون والحياة بالإنسان ودور الإنسان في هذه الحياة، وتعتبر السمات الروحية والإيمانية أصل السمات كلها، وتعتبر الجوهر الإنساني الذي يخلق السعادة أو الشقاء للفرد، وهذا البعد في الشخصية الإسلامية يمثل الغاية التي خلق الله الإنسان من أجله ([10]) ، لذلك نجد أن العقل يمثل أهم مقوم لترسيخ مباديء توحيد الربوبية ويمكن توضيح المراد بالعقل وأهميته وعلاقته بتعزيز مضامين توحيد الربوبية وعلى النحو الآتي :

أولا : معنى العقل لغة وإصطلاحا :

- **معنى العقل لغة :** إن المتتبع للفظة العقل باللغة يجد أنها يراد بها معانٍ عدة وهي :
- **المعنى الأول:** الحبس، قال ابن فارس "(عقل) العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمُه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. ومن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل"[11]. ()
- **المعنى الثاني:** العقل نقيض الجهل، : العقل: نقيض الجهل، يقال عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله. وجمعه عقول. ورجل عاقل وقوم عقلاء. وعاقلون. ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل" ([12])
- **المعنى الثالث:** الحجر والنهي، "العقل الحجر والنهى ضد الحمق والجمع عقول، وفي الحديث عن عمرو بن العاص قال: تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء. عقل يعقل عقلا ومعقولا" وقد أورد ابن منظور العديد من المعاني للعقل، ولم يفرق بينه وبين القلب. ([13])
- **أما في الإصطلاح :** اختلف العلماء في تعريف العقل على أقوال، فمنهم من قال بأن العقل هو العلم، ورأى بعضهم بأنه آلة التمييز، أو قوة التمييز، وقيل العقل هو: الوسيلة الواعية التي يستعملها الإنسان في خدمة الفطرة ليرفعها إلى مستوى المسؤولية والتكليف، إدراكاً للكون واستخداماً لما فيه من طاقات واستقصاء لأسراره ومقاصده.([14]) وكذلك يراد به : "غريزة وضعها الله (ﷻ) في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية، ولا بحسٍّ ولا ذوق، ولا طعم ". ([15]) وكذلك يراد به : "نور في القلب يعرف الحق والباطل ...، [أو هو] جوهر مجرد عن المادة، يتعلق بالبدن تعليق التدبير والتصرف ...، [فالعقل إذاً] جوهر روحاني خلقه الله (ﷻ) متعلقاً ببدن الإنسان.([16])مقومات العقل في الإسلام : لقد أوكل الشرع العديد من المقومات التي تبين مكانة العقل وقيمته وإنما جاء هذا التكريم بإعتبار أن العقل هو مناط التكليف لدى الإنسان ولذلك نجد أن الإسلام أوكل له العديد من المقومات وهي :

١. جعله واحداً من المقاصد الخمس التي أوجبت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليها وحمايتها وحرمت أي إعتداء عليها وفرضت عقوبة على كل من يعتدي عليها والمقاصد الخمس هي : الدين ، النفس ، النسل ، العقل ، المال .
٢. إحترام العقل وتقديره : إذ نجد أن الشريعة الإسلامية منحت له إمكانية الإجتهاد ، والإجتهاد : عمل عقلي يقوم على التفكر والتدبر والنظر والقياس وتوخي الإستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع وجميع ماذكر لايتم التوصل إليه إلا من خلال العقل وكذلك جعلته في المقوم الأساسي للسلوك الإنساني وبهذا الصدد يقول الماوردي (رحمه الله) : " إذ يقول:" إعلم بأن لكل فضيلة أسا، ولكل أدب ينبوع، وأس

الفضائل، وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلا، وللدنيا عمادا، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مديرة ولهذا شرف الله العقل، وأعلى مكانته، ورفعه إلى مكانة سامية، بأحكامه ". ([17])

٣. مناط التكليف : إذا جعله الإسلام مناط التكليف فالواجبات الشرعية لاتترتب إلا على العقلاء، وهذا يعطي مكانة للإنسان بأن الله (ﷻ) فضله وميزه على سائر المخلوقات ([18]) وبهذا الصدد يقول القرطبي (رحمه الله) : " فأوجب الله التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه والعاقل أقرب الى ربه من جميع المجتهدين بغير عقل ". ([19])

٤. رفع الإسلام من مكانة العقل، حتى أصبح واضحا أن من خصائص الإسلام الأولى، أنه دين يقوم على العقل، ويبني الإيمان على التفكير الصائب، والنظر العميق. ([20])

كان النبي– ﷺ –يقدس العقل، ويجله، ويرى أن قيمة الإنسان في فقد عقله، وفي هذا يقول ":كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه" (٢١) جعل ﷺ – – مرؤة الإنسان، وشيمه، في عقله.

٥. الحث على استخدام العقل وعدم تعطيله : إذ أكد الإسلام على إستخدام العقل وإعماله قال (ﷻ) : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾([22]) ، بمعنى أن الله (ﷻ) يطالب الخلق بالتأمل في السماوات والأرض وفيما يدل على وجوده (ﷻ) بالأدلةّ الواضحة، وحثهم على إستعمال العقل،إلا أن كل هذه الأدلة والبراهين الدالة على صدق ذلك لا تفيد القوم الذين لا يؤمنون ، فإنهم ال ينتفعون بها لإعراضهم وعنادهم ([23]) ، و وجهَ الله (ﷻ) الإنسان للبحث في قوانين الكون للاستفادة منها في حياته، فقد بَيّن الله (ﷻ) في حكمة التنزيل في آيات عديدة أن الكون يخضعِ صف لقوانين ثابتة، ويأتي بالحركة والإنتظام والكمية والتقدير والتصنيف ، فالإسلام يؤكد على ضرورة توجيه الطاقة العقلية الى التبصر بعوامل التطور الحقيقية الى البحث عن أسبابها ونتائجها فالمقومات العقلية في منظور العقيدة الإسلامية تقوم على : تكوين العقلية المؤمنة المتزنة ، وتكوين البصيرة والحكمة وتكوين روح الإلتزام والمسؤولية العقلية ولابد أن تتم هذه الجوانب بشكل متوازن لكي ينتج العقل المتزن الذي يقيس وفق المعطيات الشرعية. ([24]).

ومما سبق يمكن القول أن العناية بالعقل جعلت من أهم أولويات توحيد الربوبية بإعتباره مناط التكليف لدى الإنسان وأساس يمييزه وإيمانه والتصديق بآيات الله (ﷻ) والعمل بها فكراً وسلوكا .

المطلب الثاني : **المقومات النفسية**:

تمثل النفس جانب مهم في تعزيز شخصية الإنسان ومؤثراً كبيراً في تعزيز توحيد الربوبية كونها ترتبط إرتباطاً وجدانياً بروح الإنسان لأن أساس إستشعار وحضور الإيمان في نفس الإنسان يبدأ من وجدان الإنسان ويعرفها علماء علم الكلام بأنها : " الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة ، والحس والحركة الإرادية ". ([25])

وتعرف أيضا بانها : " تلك النفس الناطقة التي تحوز جميع خصائص النفوس لخرى وتزيد عليها قوة العقل والإرادة ". ([26])

وقال الرازي :" النفس الإنسانية : عبارة عن جوهر مشرق روحاني، إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء، وهو الحياة، ففي وقت الموت : ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه، وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام كامل، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ." ([27])

وكذلك عرفت بأنها : "النفس هي همزة الوصل بين الروح والجسد، إنها حركة المادة ودونها لا حياة في هذه المادة، ولا نقصد هنا بكلمة (لا حياة) الموت التام، بل نقصد فقط نقص الفعالية الحركية الهادفة والموجهة؛ إذ من دون النفس يبقى الجسد حياً، ولكن حياته غير منظمة، يختل معها عمله السلوكي والحركي والعقلي، أي يصبح مضطرباً نفسيا([28])"وقد وردت كلمة النفس في القرآن الكريم اثنتين وسبعين مرة، مفردة أو مضافة أو معرفة، أو منكرة، إضافة إلى ثلاثة مواضع وردت فيها النفس موصوفة بأوصاف معينة، يفهم منها مراتب أو درجات النفس، هي النفس الأمارة بالسوء، النفس اللوامة، النفس المطمئنة " ([29])

وردت بمعنى العقل لقوله (ﷻ): ﴿ تَعلَم ماَ فِي نَفَسِي ولا أَعلَم ما فِي نَفْسِك﴾ ([30]) ، النفس تطلق على العقل وما به الإنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده، أي تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس عقر العلوم والمعارف، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لا يطلع عليه غيره، أي: ولا تعلم ما أعلمه، أي :انفردت بعلمه . ([31])

وكذلك وردت بمعنى (الروح) ومنه قوله (ﷻ): ﴿وتَنسَون أَنفُسكُم﴾ ([32]) (أي تتركون، ويقال خرجت نفسه، خرجت روحه، والدليل على أن النفس هي الروح قوله (ﷻ): ﴿ ٱللهِ يتَوفَّى الأنفُس حِين موتِها ﴾ ([33]) أي (يريد الأرواح) (٦) ومنه قوله (ﷻ): ﴿ أَخْرِجواْ أَنفُسكُم ﴾

([34]) ووجه الدلالة هو (أن الكافر إذا حضرت وفاته تتفرق روحه في جسده فتخرجها الملائكة وتنتزعها بشدة ويقال لأصحابها أخرجوا أنفسكم أي أرواحكم، توبيخاً وزجراً..([35]) أن المعاني الأساسية في القرآن الكريم وردت بألفاظ ومعان عديدة ولكنها بالأساس تتدرج مقاصدها بمعنيين أساسيين الأول : النفس بمعنى الإنسان بجوانبه النفسية، والعقلية، والجسمية، والروحية، وهو المعنى الذي يقابل في القرآن الكريم ، الآفاق الثاني :النفس بمعنى الروح التي تسكن هذا الجسم وتوجهه فإذا فارقته حل بـه الموت ([36]) .وليست هذه المقابلة بين العالم المشهود وعالم النفس الإنسانية مجرد صدفة، إنها على العكس تلفتنا لفتاً قوياً إلى أن عالم النفس حين نتأمله يكشف لنا عن نفس الأدلة والبراهين التي تتكشف لنا في العالم الأكبر وذلك أن الإنسان، ذلك الجرم الضئيل قد تمثلت فيه كل مقومات العالم الأكبر، فإذا أدرك الإنسان نفسه، أدرك العالم من حوله، ومن فوقه ومن تحته،ويجد نفسه دليلاً على الموجد المبدع (سبحانه)، ودليلاً على قدرته المعجزة، ودليلاً على تدبيره الحكيم، وعلى هذا فإن الدعوة التي يدعونا فيها القرآن الكريم إلى أن نتأمل في نفوسنا هي دعوة إلى تلمس الأدلة من أقرب الأشياء إلينا ([37]) .

فالمقومات النفسية تتضمن (الروح والوجدان) وهما جانبان يرتبطان إرتباطاً أساسياً بتوحيد الربوبية وبهذا الصدد يقول ابن أبي العز الحنفي –رحمه الله– : " توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل، فإنه مركوز في الفطرة، وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كانت نطفة ثم صارت النطفة في قرار مكين، وانقطع عنها تدبير الأبوين، وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق ، واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا "([38]) ، لذلك فإن توحيد الربوبية يعزز دور المقومات النفسية لدى الإنسان من خلال مايلي :

١. تحقيق الأمن والسكينة وتتحقق سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها لأن إيمانها الصادق با الله يمده بالأمل والرجاء في عون الله ورعايته، وحمايته، لأن المؤمن دائم التوجه إلى الله (ﷻ) في عبادته وفي كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته (ﷻ)، ولذلك فهو يشعر أن الله (ﷻ) معه دائماً، وهو في عونه دائماً، وأن شعور المؤمن بأن الله (ﷻ) في عونه يكفي بأن يبث في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة([39]) ، لقوله (ﷻ) : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ([40]) ، و"قد أشار كثير من المفكرين الغربيين في العصر الحديث إلى أن أزمة الإنسان المعاصر إنما ترجع أساساً إلى افتقار الإنسان إلى الدين والقيم الروحية، "فقد أشار المؤرخ أرنو لد توينبي Toynbee A إلى أن الأزمة التي يعاني منها الأوربيون في العصر الحديث؛ إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه هو الرجوع إلى الدين ، وهكذا ترى أن للإيمان تأثيراً عظيماً في نفس الإنسان فهو يزيد من ثقته بنفسه،ويزيد قدرته على الصبر، وتحمل مشاق الحياة، ويبث الأمن والطمأنينة في النفس، ويبعث على راحة البال ويغمر الإنسان الشعور بالسعادة [41] (

٢. **العناية بمقومات النفس ظاهراً وباطناً** إذ كشف القرآن عن بواطن النفوس، وذوات الصدور، فلا يوجد كتاب مثله في تناوله للنفس البشرية، يكشف خبيئتها، ويقوم عوجها، ويصوب فكرها، ورأيها، ونظرتها دراسات في النفس الإنسانية،، والحياة، فالقرآن الكريم هو" كتاب تربية وتوجيه...وفي سبيل هذا التوجيه يكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه، وأسرار الكون من حوله، ويدعوه إلى دراسة هذه وتلك، ليعرف ويتعلم، ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح" ([42])

٣. **إزدواجية الطبيعة البشرية** : إن إزدواجية الطبائع لدى نفس الإنسان مقصودة وذلك لإستشعار قيمة التوحيد ودوره في إصلاح وتقويم النفس فنجدها تتصف بالضعف إذ تتصف النفس الإنسانية بالضعف، قال (ﷻ): ﴿وخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفاً﴾ ([43]) في كل شيء، لأنه خُلق من ضعف، ويؤول إلى ضعف، أسير جوعه، صريع شبعه" يستميله هواه وشهوته ويستشيطه خوفه وحزنه، وقيل : عاجز عن مخالفة الهوى وتحمل مشاق الطاعة، وقيل : ضعيف الرأي لا يدرك الأسرار والحكم إلا بنور إلهي، وقيل: إن المراد ضعيف الخلقة يؤلمه أدنى حادث نزل به" ([44]) فلضعفه قد خفف الله (ﷻ) تكليفه ولم يثقل عليه " وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته ([45]) ، وكذلك الشح ﴿وأُحضِرتِ الأَنفُس الشُّح﴾ ([46]) ووجه الدلالة هنا (أن النفوس جبلت على الشح، وأن الشح قد أحضر في داخل الأنفس بالتكوين الفطري لها، وهو:عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك، فينبغي عليكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، فدل هذا النص القرآني على أن الشح من الصفات الملازمة للإنسان، فهو في بذله قتور، وإقتاره مع سعة ما يملك، سببه تخوفه) ([47]) ، وكذلك من صفاتها الإرادة الكاملة قال (ﷻ) :﴿ولَوشِئْنا لآتَينا كُلَّ نَفْسٍ هداها﴾ ([48]) ، أي المراد هنا (على طريق الإلجاء والقسر، وبنفس الوقت حرية الاختيار دون الاضطرار) ([49]).

٤. **مراقبة النفس ومحاسبتها** : فتقويم النفس بإستمرار يتم من خلال تأثير وإستشعار قيم توحيد الربوبية بشكل دائم فعندما نستشعر وجود الله (ﷻ) نجد أثر ذلك على أنفسنا وبهذا الصدد يقول ابن القيم –رحمه الله تعالى– : "وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإذا تذكر فيها نقصاً تدارك، إما بقضاء أو بإصلاح، ثم يحاسبها على المناهي: فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله (ﷻ) ، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت به رجلاه، أو بطشت به يداه، أو سمعت أذناه : ماذا أردت بهذا؟ ولم فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟". [50]

٥. **قاعدة التغيير** : تنطلق آثار التوحيد أي(توحيد الربوبية) من خلال منهج القاعدة التغييرية القرآنية لقوله (ﷻ) :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [51] . فالتغيير المقصود هو طريقة النظر للنعم والقدرات والهبات التي منحت للإنسان وميزته عن بقية المخلوقات فعندما يستشعر قيمتها يستشعر قيمة التوحيد الرباني .

المطلب الثالث : **المقومات السلوكية** :

يمثل السلوك الصورة العملية لتطبيق آثار توحيد الربوبية لذلك نجد أن المنهج الإسلامي أولى عناية كبيرة للسلوك ومقوماته ويعرف السلوك بالمنظورالشرعي بأنه كل فعل أو قول أو تقرير صادر عن شخص أو جامعة من المسلمين وكان موافقاً للشرع الحنيف من كتاب الله وسنة رسوله(ﷺ) [52].كما يعرف بأنه : "أخلاق الفرد وتعامله مع الآخرين، ويتأتي هذا الفهم من إستخدام كلمة السلوك في الحياة اليومية فنقول فلان حسن السلوك" [53] .ويعرف أيضا : كل ما يصدر عن الفرد من نشاط ظاهر كالكلام و المشي، او نشاط باطن كالتفكير والتذكر والشعور بالإنفعال" يصدر عن الفرد من استجابات مختلفة ازاء موقف يواجهه [54] إن السلوك الإنساني في منظور العقيدة الإسلامية أساسه القرآن والسنة النبوية، وقد وضع القرآن الكريم لتدعيم ظهور السلوك المرغوب أساليب فنية مبدعة، وإيقاف الغير مرغوب بها ، فقد خاطب القرآن جميع فئات الناس وفروقاتهم، وأبدعت آيات الله العظيمة في تحقيق المراد من ذلك الخطاب الذي يشعر بالأمن والأمان تارة، ويحذر من اتباع الأهواء بعدم الرضوخ إلى تربية النفس، وتقديم النصح والإرشاد لآخرين معتبراً ذلك عنصراً أساسياً في الدين، ويعتبر تقويم سلوك الأفراد تكليف رباني يعتمد عل طبيعة سلوكه[55] ، لذلك نجد أن المنهج الذي أوجدته العقيدة الإسلامية وتحديداً جانب التوحيد إنها ركزت على إيجاد العديد من الضوابط التي من شأنها أن تقوم السلوك وتصلحه إصلاحاً متوازناً يتلائم مع طبيعة الفرد التي منحت له بإعتبار أن السلوك الإنساني يتصف بالعديد من الصفات التي أسهمت بسهولة التأثير بها ومن بين هذه الصفات :

- **قابلية اللتنبؤ:** هي خضوع السلوك الإنساني لنظام معين ومعقد، وعند التمكن من تحديد العنارص املكونة لهذا النظام يصبح من الممكن توقع حدوث السلوك والتنبؤ به.
- **القابلية للضبط:** هي إعادة ترتيب وتنظيم المثيرات البيئية السابقة أو اللاحقة للسلوك، وتَستدعي ظهور الاستجابات السلوكية المحددة، فإن إعادة تركيب الأحداث وتنسيقها بشكل معين ومدروس يهدف إلى إظهار سلوك معين، ويكون ذلك باستخدام المبادئ والقوانين النفسية السلوكية .لقد أحاطت التربية الإسلامية المسلم بسياج من التوجيهات والإرشادات والأحكام التي تحمي سلوكه الصحيح من الخطأ، وفطرته السوية من الانحراف، فالضبط الوقائي للسلوك يعني: " صيانة فطرة الإنسان وحمايتها من الانحراف، ومتابعة النفس الإنسانية بالتوجيهات الإسلامية الربانية، عن طريق أخذ الاحتياطات والتدابير الشرعية التي تمنع من التردي في خبائث العقائد والخلائق وسائر المخالفات التي هي أقوم في كل جانب من جوانب حياته الأعمال، ليظل الفرد على الصراط المستقيم، مهتديا [56] وأما الضبط الداخلي فهو نوع من التقويم الذاتي للسلوك يقوم به الإنسان بنفسه ويرتكز على الاقتناع الداخلي من الفرد، وفقًا لمجموعة من القيم يدين بها ويعتبرها بصره الذي يرى به وطريقه الذي يسير عليه، وقد امتازت التربية الإسلامية عن سواها من أنواع التربية الأخرى بأنها تتجه في تربية الإنسان بداية من داخل نفسه، ثم تقيم بناءه الخارجي على أساسه ولذلك تهتم بتكوين الضمير اليقظ لديه [57]، يقول (ﷻ) بهذا الصدد :((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [58] ، يقول ابن كِثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية " أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتُم وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم،واتقوا الله ليومِ معادكم وعرضكم على رب أعمالِكم وأحوالِكم، لا تخفى عليه منكم خافيه واعلموا أنه عالِّم بجميع أحوالكم. [59]. فالسلوك الإيجابي والسلبي يصدران عن النفس الإنسانية، فلا يصدر السلوك الإيجابي المرغوب فيه إلا عن نفس مؤمنة بعيدة عن أسباب الانحراف، أما السلوك السلبي فلا يصدر إلا عن نفس مريضة بالذنوب مليئة بالشك، ولما كان هذا حال النفس، كانت محاسبتها من الأساليب الوقائية التي تمنع إرتكاب السلوك المخالف أو الاستمرار

فيه ؛ لذا يجب ضبطها ومجاهدتها للوصول للسلوك القويم الذي لا يصدر إلا عن نفس آمنة مطمئنة بعيدة عن الاضطراب والقلق، حيث تِمر محاسبة النفس الشعور بالمسؤولية من المسلم تجاه الله (ﷻ) أولا ، وتجاه الخلق ثانيا ، فلا يصدر منه سلوك إلا بما يرضي الله (ﷻ)، ولا يضر بالخلق ويعتدي على ، يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – بهذا الصدد " وترْك المحاسبة والإسترسال حقوقهم ومصالحهم "([60]) ، كأن صلاح سلوك الفرد تابع لصلاح عقيدته وسلامة أفكاره، وفساد سلوك الفرد تابع لفساد عقيدته وانحرافها؛ وإلى هذا يشير الحديث الصحيح عن النبي (ﷺ) : "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" ([61]) .

الخاتمة

١. توضيح مقومات الشخصية المسلمة وعناية عقيدة توحيد الربوبية بها .
٢. أصل مقومات الشخصية الإسلامية قائم على الإيمان بالله ورسوله ، والتصديق والانقياد لأحكام الشريعة وأصولها وآدابها.
٣. وضعت عقيدة توحيد الربوبية صورة شاملة وصادقة لطبيعة شخصية الإنسان ودوره ووظيفته ومصيره وبناءه النفسي؛ إذ تنظر إلى الشخصية الإنسانية كوحدة متكاملة، يتناولها من جميع جوانبها المتعددة، الروحية، والأخلاقية٠، والاجتماعية، والفكرية، والجسدية.
٤. نجحت العقيدة الإسلامية في المحافظة على النفس وشخصية الفرد المسلم من خلال التصدي لبواعث النفس وغرائزها والتصدي للفكر الدخيل ومنحه الحرية اللازمة للتميز وكذلك ربطت بين الإيمان وبين مبدأ الإستخلاف والعمران وكيف أسهم هذا الجانب في الحفاظ على حقوق الفرد في كافة الجوانب .

هوامش البحث

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠.

(2)لسان العرب،إبن منظور :٧/٤٥.

(3)المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية– إسطنبول، تركيا، (د. ط)، (د.ت)، ص٤٧٥ .

(4) ينظر: الشخصية نظرياتها وأساليب قياسها ، رمضان محمد القذافي، ، المكتب الجامعي– الإسكندرية، ٢٠٠١ م ،٩٠.

(5)الشخصية الروائية بين أحمد بالكثير ونجيب الكيلاني دراسة موضوعية وفنية نادر أحمد عبد الخالق، ، دار العلم والإيمان – بيروت ، ط١ ،٢٠٠٩م ،٤٤.

(6)الثقافة والشخصية ، سامية حسن الساعاتي، ، دار النهضة العربية– بيروت، لبنان، ط٢ ،١٩٨٣م ، ١.

(7)ينظر : شخصياتنا المعاصرة بين الواقع والدراما التلفزيونية ، ماجدة مراد ، دار عالم الكتب– القاهرة، مصر ، ٢٠٠٧م : ٢٠.

(8) ينظر : من علم النفس القرآني ، عدنان الشريف ، دار العلم للملايين– بيروت ، ١٩٨٧م ، ٢٢.

(9)ينظر : الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي فؤاد حيدر ، دار الفكر الغربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م : ١٧.

(10) ينظر : القران وعلم نفس الشخصية المسلمة ، عبد العليم الجسماني ، دار الفكر – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ١٤.

(11) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس،٤/ ٦٩.

(12) الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ عصره في اللغة العربية وأحد أهم علماء اللغة العربية، ولد في عمان عام ٧١٨م. توجه إلى البصرة ليتلقى العلم هناك ولُقِب بالبصري. كما تميز الفراهيدي في علم الموسيقى، والرياضة والترجمة تتلمذ على يد كبار العلماء وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر) .معجم الأدباء (١١/ ٧٢ – ٧٧) .

(13) لسان العرب، ١١/٤٥٨.

(14) ينظر : الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١ /٢٥٢ ، ، العلم والدين؛ مناهج ومفاهيم، أحمد عروة دار الفكر، دمشق، ط١ ، ١٩٨٧م : ٤٠.

(15)العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٣٤هـ)، ، تح: حسين القوّتلي، ، دار الفكر– بيروت ، ط٣، ١٩٨٢م، ٢٠١–٢٠٢.

(16)التعريفات، الجرجاني، ١٧٣.

(17)ينظر : أدب الدنيا والدين ، أبي الحسن الماوردي ، تح: محمد كريم راجح،دار أقرأ، بيروت – لبنان ، ط٤، ١٩٨٥م : ٦–٧.

(18) ينظر : بحوث في التربية الإسلامية ،سعيد إسماعيل علي ، مركز التنمية البشرية – القاهرة ،١٩٨٧م، ٢٠٢-٢٠٣.

(19) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي : ٢٦١/١٠

(20) ينظر : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط٢ ، ١٩٨٨م : ٢١٩.

(٢١) أخرجه الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، كتاب النكاح ، باب كرم المؤمن دينه ومروئته عقله وحسبه خلقه ، ٥١٢/٢، ح رقم ١١١٥.

(22) سورة يونس، الآية: ١٠١

(23)تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣٧٥/١.

(24) ينظر : تطور الفكر التربوي الإسلامي فيصل الراوي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع – ٢٠٠٠م ، ١٠٥-١٠٦.

(25) التعريفات ، الجرجاني : ٢٦٢.

(26) الصحة النفسية : دراسات في سكيولوجية التكيف ، مصطفى فهمي ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ١٩٨٩م : ٨ .

(27)مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣، ٢٠٠٠م ، ٢٨٤/٢٦.

(28) علم نفس الدعوة، الدكتور محمد زين الهادي، الدار المصرية اللبنانية – بيروت ، ١٩٩٥م ، ٢٥ .

(29) الموسوعة الإسلامية العامة ، محمود حمدي زقزوق وآخرون ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر ، ٢٠٠٣م ، ١٤٠٩ .

(30) سورة المائدة : آية ١١٦

(31) ينظر : التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ ، ١١٥/٧.

(32) سورة البقرة : آية٤٤.

(33) سورة الزمر: آية٤٢.

(34) سورة الأنعام : آية٩٣ .

(35) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٥٠/١، تفسير القرآن العظيم، ، ٢ /٢.

(36) ينظر : دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث ، محمد عز الدين توفيق ، دار السلام للطباعة والنشر – مصر ، ط، بلا ، ٢٠١٠م ، ٥.

(37)نصوص قرآنية في النفس الإنسانية ، د. عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية – بيروت ، ١٩٧٥م ، ص١١٨-١١٩.

(38) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية ، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ) تح: جماعة من العلماء، ،: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة – مصر ، ط١ ، ٢٠٠٥م ، ص ١٦٤.

(39) ينظر : القرآن وعلم النفس،د.محمد عثمان نجاتي ، دار الشروق – مصر ، ط١، ٢٠٢٠م ، ص ٢٤٢.

(40) سورة الرعد : آية ٢٨.

(41) ينظر : القرآن وعلم النفس، ٢٤١.

(42) ينظر : دراسات في النفس الإنسانية ، محمد قطب ، دار الشروق – مصر ، ط، بلا ، ١٩٩٦م ، ٨.

(43) سورة النساء : آية ٢٨

(44) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١، ١٩٩٥م ، ٥/ ٢٢.

(45) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي ، ١٦٤.

(46) سورة النساء : آية ١٢٨ .

(47)ينظر : تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي ، ١٩٩.

(48) سورة السجدة :آية ١٣.

(49) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٦م : ٢٤٢/٣.

(50) ينظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، إبن قيم الجوزية ، ٩٩/١.

(51) سورة الأنفال آية ٥٣

(52) السلوك الإجتماعي في ضوء القرآن الكريم ، عماد محمد أبو كرش ، رسالة ماجستري غير منشورة، في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية- غزة ، ٢٠٠٩م : ١٧ .

(53) ينظر : تيسير الكريم الرحمن، ١١/٤.

(54)أصول علم النفس ، حمد عزت راجح ، دار المعارف- القاهرة، ط١ ، ١٩٩٩ م، ١٠.

(55) ينظر : منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تقويم السلوك وكيفية الإستفادة منه في تعلمنا المعاصر ، محمود أبو دف، بحث مقدم لمؤتمر تطوير برامج كليات الرتبية بالوطن العربي في ضوء المستجدات المحلية والعالمية،كلية التربية - جامعة الزقازيق، ٢٠٠٦م : ٤٠-٤١.

(56) ينظر : التربية الوقائية في الإسلام ومدى استفادة المدرسة الثانوية منها ، خليل عبد هلال الحدري ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى، - مكة المكرمة، ، رسالة ماجستير منشورة ، ٢٠٠٧م ، ٢-٤.

(57) ينظر : التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها المؤلف: عاطف السيد ، دار الفكر العربي للنشر - القاهرة ، ٢٠٠٨م : ٩-١٠

(58) سورة الحشر : آية ١٨.

(59)تفسير القرآن العظيم ، بن كثِير، ٢ / ١٠.

(60)تعديل السلوك الإنساني في التربية الإسلامية ، عماد الشريفين ، ٤ - ٥.

(61) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ، ٢٨/١ ، حديث رقم ٥٢.